البعد العالمي للفكر التأويلي*

محمد شوقي الزين (فرنسا)

ترجمة عن الفرنسية : عبدالقادر بودومة

وهران - لجزائر

في ١١ فبراير ٢٠٠٠ احتفل الفيلسوف الألماني هانس غيورغ غادامير بعيد ميلاده المئوي . وبهذه المناسبة الجليلة، نظمت جامعة هايدبيرغ حفلا فخما على شرفه ، مع العلم بأنه زاول التدريس بهذه الجامعة لعدة عقود . ولد غادامير في ماربورغ بالمانيا سنة ١٩٠٠ ، درس الفلسفة عند هُسيرل وهيدغر. وفي سنة ١٩٦٠ قام بنشر أولى أعماله المهمة «الحقيقة والمنهج : المعالم الكبرى للتأويل الفلسفي» والذي تم ترجمته كاملا سنة ١٩٩٦ إلى الفرنسية . وسيصبح هذا الكتاب الجزء الأول من موسوعة غادامير التأويلية التي تضم عشرة أجزاء ، كل جزء يحتوي على ٥٠٠ صفحة تقريبا . فهو عمل شاق وطويل بادره غادامير في جمع أعماله ابتداء من سنة ١٩٨٦ . إن «الحقيقة والمنهج» عبارة عن قاعدة للفكر التأويلي أو بالأحرى مقال في المنهج التأويلي له علاقة بالأبعاد الثلاثة للتجربة الإنسانية وهي : الفن والتاريخ واللغة . يتعلق الأمر أيضا بتاريخ الأفكار التأويلية منذ الفلسفة الآغريقية وحتى العصور الحديثة مرورا بالفكر الوسيط ثم الأنوار والنهضة . لكن «الحقيقة والمنهج» ليس مجرد دراسة وصفية للمنهج الهيرمينوطيقي ولنظريات التأويل منذ فيلون وأغسطين حتى شلايرماخر ودلتاي مرورا بلوثر وفلاسيوس ودانهاور ، بل هو يعكس مقاربة نقدية للفكر التأويلي، متلما يتجلى في الميادين الثلاثة : الفن والتاريخ واللغة .

(*) نص قدمه الكاتب في الذكرى المئوية لميلاد غادامير ونشره في جريدة «لوتراكت» الفلسفية، جامعة كويبيك في تروا - ريفيير (كندا) ، المجلد الأول ، العدد الثاني ، خريف ٢٠٠٠، ص ١٦.

عمل غادامير على تبيان الطابع العالمى للفكر التأويلى والذى لا ينحصر فى تأويل النصوص الفلسفية والأدبية والدينية والقانونية وإنما يعالج التجربة الإنسانية فى شموليتها . هكذا تتسع حلقة الهيرمينوطيقا لتدل على قراءة مواظبة ونقدية للفكر الإنسانى . صحيح أن كتاب «الحقيقة والمنهج» وظف «مفتاح» الهيرمينوطية (كلافيس باللاتينية) كأداة تأويل النصوص والآثار لفتح أقفال التراث الدينى والأدبى والفلسفى ، ولكنه يُعتبر قبل كل شىء بيانا من أجل التجربة الأنسانية ، فهو عبارة عن ازاحة ذات طابع ابستمولوجى تخترق سُمك التراث وتتجاوز إطاره النصى الذى ينغلق فيه هذا التراث لتتعلق براهنية الفكر وطريقة تحويل النص الصامت والجامد إلى كائن خلاق يتجاوز ذاته بقدر ما يتجاوز الواقع الذى يدل عليه . والوسيط الضرورى والكافى الذى يربط الفكر بالواقع هو «اللغة» .

لكن هابرماس ينتقد هذا المسار اللغوى فى فلسفة غادامير ولم يتردد فى نعت هذه الفلسفة بوصفها «مثالية لغوية» . فهو يعتبر أنّ غادامير جعل من اللغة معيار جميع الأشياء وأهمل الطابع الايديولوجى الذى تنطوى عليه . فضلا عن ذلك ، ليس الخطاب مجرد كيان لغوى يحمل المعنى فى خلوصه ولطافته ، ولكنه ، قبل كل شىء ، سلطة وممارسة إجتماعية لا ينفك عن إكراه قسرى وهيمنة . الشىء الذى يبرر نقد هابرماس هو العبارة الشهيرة لغادامير : «الكائن الوحيد الممكن فهمه هو اللغة» . إذن الفهم الممكن . من هذا المنظور ، هو اللغة بوصفها دليل الواقع ومرآة الأحداث . لكن قد نقع فى فخ القراءة الساذجة والاختزالية إذا إكتفينا بإثبات أنّ اللغة هى البعد الوحيد للتجربة الإنسانية الذى يحدد المكونات الأخرى للحقيقة البشرية . فهم اللغة هو ، حسب غادامير ، إمكانية فى التدليل على «تناهى» التجربة الإنسانية وأنّ اللغة لا يمكنها استنفاد ما تعبر عنه أو تريد التعبير عنه . هناك دوما «إرادة فى التعبير» التى تجعل من اللغة كيانا لا نهائيا تؤطره جدلية «السؤال»و «الجواب» . فليست الأسئلة والأجوبة مساءلة وبحثا عن الحلول ، وإنما أيضا نقدا وحوارا .

هكذا تتأسس الحقيقة الإنسانية على هذه الجدلية التى تؤول الى حوار مستمر، وهو حوار لا يتم فقط بين ذاتين أو وعيين ، وإنّما أيضا فى صُلب الوعى أو فى الهوية ذاتها . فهو عبارة عن «مونولوج» يجعل من الذات على خلاف ما هى عليه ولا تتوان عن المساءلة والمجاوزة . هذا «المونولوج» الخلاق وجده غادامير عند أوغسطين وأعاد استثمار مفهوم «اللفظ الجوانى» كإرادة ملازمة للتجربة الأنسانية والتى تدفع الذات إلى إقامة علاقة حوار مع الذوات وأشياء العالم . هكذا تصبح اللغة فضاء التواصل والحوار غير المحتمل بين الحاضر والماضى أو الأنا والآخر أو «النحن» و «التراث» .

إنّ البُعد العالمى للفكر التأويلى هو إنتاج الحقيقة وصناعة التجربة الإنسانية فى «عالم التأويل أو التأويل بوصفه «عالما» أو «حقلا» فنيا وتاريخيا وألسنياً تتشكل فيه التجربة الإنسانية وتتواصل فيه الذوات بوصفها كائنات متناهية عبر اللغة كحقيقة لا نهاية لا تستنفد منطوقاتها أو لفظها الجوّانى اللانهائى واللامستنفد. إن تأويلية غادامير لا علاقة لها باللغة كموناد ات لغوية ع ذرات منطقية أو هندسة نحوية ، وإنما هى حقيقة براغماتية وتواصلية . إنها باختصار البعد الكونى للفهم كحوار وتواصل .